

٦ - أو من بالإنسان ! للأستاذ عبد المنعم خلاف

—

بين الغفلة واليقظة — سبعة في أذن الانسان — لو ، ولعل ،
وربما — لا ملام على الأندار — لم تفت الغاية — نقطة
البدء في الحياة الفكرية — الجنابة الأولى — حادث عظيم —
آثار من الوئبة — الوضع الأسيل لدين — ديانة الحياة

حينما أمس وأندس إلى مجلس في موعى بلدى حقير أرتقب
الحياة الإنسانية في بعض جوانبها ، وأتفرس في وجوه للقوم
ونواصيهم ، وأتسمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ،
وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع إلى شيء سام ،
ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة ، ولا تفكر
في مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد ...
وحينما أذنب بجمعى في زحمة سوق من الأسواق بين شجيج
الحركات والأصوات والأبواق وسفقات الأيدي الخاتلة على الأيدي
المتخولة في اللقود والمبايصات ، وسائر الارتقاقات والمشاحنات

والجسمية والنفسية ، وفي شؤون للسياسة والاجتماع والثقافة
والترفيهية ومناحي التفكير والوجدان ومستوى النهضة وحياة
الأسرة والتقاليد والمعادن ... ، وفي الظروف الطبيعية والجغرافية
المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به
من وظائف ، والآثار العميقة التي تركها كل وظيفة وهنة
في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير
وسرعته ، وإنشاء مصطلحات خاصة بسدد الأمور التي يكثر
ورودها في حياتهم ، وتمتأثر بقسط كبير من اقتباهم ،
وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له ،
أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم
وأعمالهم ... وهم جراً . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها
من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها
في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها
فينشأ من جراء ذلك ما يعرف « بالعجات الاجتماعية » التي تكلمنا
عنها في مقال سابق
هو عبد الواحد راني
لسانیه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

وحينما أرسد حياة الأفراد اليومية . فأجدها سلسلة من
الغفلات والأكلات والذات والأعمال الآلية التي لا استحضار
فيها لمعان كريمة ، ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية
بها ... وإنما هي دورات رحوية وسير أسمى وراء دولاب الحياة
من غير سؤال : إلى أين المسير ؟

حين هذا كله أجد في نفسى كأن الإنسانية هريقة في غفلتها
وذوولها ، وكأنها خلقت لهذه الغفلات ولن تكون لغيرها ،
ولن تكون لحياة أخرى وراء هذه الحياة ... وكأنها منفصلة
عن حياة الطبيعة الحادة الواعية المادة الوزونة انفصلاً يكاد
يجعلها عالمًا مستقلاً ...

ذلك وحى رؤيتي لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور في
الأكوان ، وإعالمهم التفكير في مبدأ الحياة ومنهاها وفي خفايا
الطبيعة وأسرارها ...

وحين أجلس مجلساً تثار فيه الأفكار من الكون والفساد
والحقائق والأباطيل وتصول فيه العقول وينبرى بمضها لمعض
بالاعتراض والرد. ولتنطبق والتشقيق والبيان الساحر والحجج
لللافتة ...

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار
ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد ...

أو حين أرى آلة معقدة للتركيب تطير أو تدير أو تخفق
بالأصوات والبرقيات مما أخرجه عقل مهندس ذى قدرة على
الاستنباط والتقليد والابتكار ...

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة في عراب تلو صلوات
أو ترتل آيات في إطراق وخشية واستحضار لمظلمة الكون
وجلال بارئته ...

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ
للأحاديث الصامتة والناطقة في للطبيعة ، واسترق السمع للنغم
القائب في الكون ، والموسيقى الأبدية في حركات نجوم السماء
ونجوم الأرض ...

حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس
ومؤهلات خلافته ...

هنا الإنسانية التي تنع العقول الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة
وقيمة الخير والحق والجمال

هنا وضوح وانكشاف لعنى سيادته وملكوته واسع يصح

مدرة . وتنظر في الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف وما يمشى وما يطير وما تحمله الريح وما يحمله الماء والأثير وما تحمله قوة القوى : الفكر !

أواه ! أية غفلة هذه التي تنشئ للناس وتركهم عمياً ذاهلين عن مجيء الحياة بهم من غير اختيار إلى دار المعجائب وعن سيرها بهم إلى دار المجهول ! وعن سير الشمس والقمر وتوارد الأيام وسقوط الأمطار وأسفار الرياح إلى مختلف النواحي !

ثم أية غفلة هذه التي تنشئ عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء بهم وسيذهب... ذلك الذي استتر وأمر على تكبره واختفائه!

ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها في غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من اللبائط إلى المركبات إلى المقدرات وهو في شغل عن الأسباب والمسببات إذا أخرج منها مجنوناً بمجرد دخوله إليها من شدة المفجأة دهشة المعجب !

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثرهم بصنائر الحياة والنزاع عليها ، وجملهم كالقطيع للناقل الريح السادر في غفلة وعماه عن العلوم والمجهول من أمور الحياة ... وأخرجهم في خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليملأوا في الأرض كما تعمل الثيران في الطواحين ... تدور وهي لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور ... وضربهم بفتنة الدنيا ، فزافت منهم الأبصار من الحقائق إلا في قترات الدين والصلوات ... وحتى هذه أدر كوهاوم في خمار المادة وصغار للشهوات ، إلا قليلاً منهم وهم للمارقون الدركون لأرصاد الطبيعة وشيء من تدير الله فيها ... لعله فضل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر في أعجاب صنعه التي كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ...

وهؤلاء المارقون لو اطلموا على النيب لاختاروا الواقع وانصاموا تحت حكم الأقدار ، ولو في مقارفة الأضرار والأوصاب ، إذ قد هرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشركوا في حبك الخديعة التي أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التي عليها عمار الأرض بالأسلوب المادي المروف

وربما كانت غرائز اللطيف المنيفة هي التي تمنى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عتف غرائز الطفل مستقبه ويوسع من آفاق حياته ...

أن نلتند إليه في تخيل مستقبه وفي تبين موضعه وسط ما يمر للكون من التحولات ...

ثم أسيح : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها ... تيقظ إنك حي تسمى وترى وتفكر وتتجه في أي اتجاه تريد وسط الظلام والجناد والنور والصلمت والبكم والصمم والعمى أنت الذي تفقه وتدرك تلك الحياة التي لا تجد غير عينك وأذنك وصائر حواسك

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذي يحيط بك وأنت خليفة على مقدرات الأرض وأن في يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتنوير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف في سمع الزمان والمكان : أنا أعو وأترق وأتكلم وأفكر وليس أمامي حدود وسدود وأيتها الخلائق الواقعة المحدودة ... واجلس بجانب الجاد والنبات والحيوان قترات لترى الفوارق بينك وبينها ... ولن يفخر خالق الإنسان لاسرى جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ويحدد موضعه منها ، ثم يرفع عينه إلى السماء ويخفضها إلى القبر حتى يرى الطريق بينهما ...

تيقظ إلى الذي مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين إلى نحي النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة في السماء ومشاهد صرمة متغيرة في الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومطاً أجسامنا من مضفة لحم ملقاة في ظلمات الأرحام إلى أجنة مكتملة للتخليق إلى أطفال دراجين إلى فلان يافعين إلى صراحتين متفتحين إلى شبان مشبوبين إلى كهول وشيوخ متظنين لا يطلون وراء أيامهم أياماً ...

إلى الذي أدار الشمس أمام عيوننا دوراتنا يبلي في أجسامنا نضيجاً وينمج آخر ، ويزيد في أفكارنا سوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام تحت أقدامنا سفرأ في الزمن ، ثم يطلوينا بالأيام عضواً عضواً وذكري وراء ذكري ...

إلى الذي فتح في نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود ، ثم سجننا في سجون القبور إلى يوم النشور ... إليه منا نحن الذين نبحت عنه منذ أن دخلنا عالم الفكر وشتنظره وراء الأستار وتفرع باب الزمان والمكان في غمرة كل يوم وفقاً كل مساء نسائل عنه ، وسننا عيون نفود وأقدام تمير وقلوب تلتفت وراء كل ورقة في كل شجرة وكل ذرة في كل

حلقة جديدة فائقة تحمل سرّاً جديداً من أسرار تكوين هذا للنوع

ولكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها إذ تهمل وصل كل عقل ناشئ بفتح الحياة ، ومفيض فيضها ومرسل رحمتها وكأن الوثنية لم ترتفع بمض آثارها من الأرض للآن ... وما الوثنية ؟ هي انصراف العقل الإنساني عن الفكر في مصدر الحياة وما يليق له من الكالات وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفروضه عملاً للنفس بالحياة وتتواز على الجسم ... ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء ينسى الإنسان معه الإحساس بالحياة ورب الحياة ويستغرق في ذلك للنسيان حتى يتمدد ويلوذ بما ركن إليه ...

وها نحن أولاء نرى في هذا المصير آلهة منصوبة من الطاغ والشهوات والآلات والأعمال والصناعات يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى صاحب الحياة ...

قد يظن ظان أني مغال في الصوفية حين أدعو إلى أن يكون عقل الإنسان دائماً مرآة لشماع ساقط من سماء الله ... ولكن هذا هو الوضع الأسيل الحقيقي للدين على ما أفهمه وعلى ما فسرت به في مقال سابق من أنه الإحساس الدائم بالحياة والفكر في مبدعها لتكون لهاها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً من العبادة ...

والإسلام الذي هو دين الطبيعة ودين الحياة قد رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال والآلام ، حتى عندما يريد الإنسان أن يدخل المكان الذي يخرج فيه ما في جوفه من الأذى ... ! ولن يكون الدين قير هذا ... فليحمله في نفسه من شاء ، وليتركه من شاء ...

ألا إنها « ديانة الحياة » التي تستحق وحدها أن يجيها الإنسان بها ويسعى جاهداً في سبيلها لتحقيق غاياتها ...

وغاياتها : العقيدة الثابتة التي لا تنزعج بمخالفات الحياة الواحد وحفظ الحياة تقية قوية متجددة كما هي في الطبيعة ... ورسد قوانين الطبيعة التي تميز الحياة بنظام دقيق في الجليل والحقير ...

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضمه بميزان ولا يجوز مطلقاً أن تهوم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات وما تم قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد قامت على الله الغاية من خلق هذا النوع - كما تهوم به من كتب إلى منذ حين - فإن الإنسانية لا تزال في دور تفتح المدارك واستقبال الشباب ، والشباب فيه لونات كثيرة ، ولا بد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص في كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية من خلقها كما أرادها ربها ...

وكل ما تم الحياة الإنسانية وأزماتنا قد نتفطر ويمجد الفكر لها تليلاً ، إلا الكفر بمخالفات الحياة أو الإشراف به !

وكذب من يريد خديعة نفسه وخديعة الطبيعة وخديعة رب الطبيعة !

ذلك الذي يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير تقطة البدء التي يراها للفكر أول حياته ومفتاح عالمه ...

كذب وضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيتاً ، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه !

إن تقطة البدء في الحياة الفكرية ، هي الفكر في صاحب الدنيا : هذا البيت الكبير المائل الذي جاء بنا إليه وأسكننا فيه من غير اختيار منا ... للفكر فيه حتى نعرفه ونذكر طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وأسلوبه ...

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر ... وقد رأينا ظل يده يقع على كل شيء ويضع كل شيء في موضعه

ومن أضل ممن يأخذ أقطال الحياة أول نشوئهم ويباعد من تقطة البدء هذه ويضمهم في مكان صحيح ، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولاً وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوشاً كذلك !

الغاية الأولى هي إعمال الفكرة الأولى : وهي السؤال عن جاء بنا إلى هنا ، ومعنى بنا كما جرى سبيل . ومن وراء الغاية الأولى تتلاحق أخواتها التي تجعل الحياة أفلاطناً مسلسلة

إن انفصال جنتين إنساني من رحم أمه حادث عظيم ينبئ للإنسانية أن تلتفت إليه وتوليه أجل عناية ؛ فلعل في الوليد